وارتاح مكدود!

البراء بن محمد

انقضت خمس ساعات ونصف بعد منتصف الليل. بحث مكدود حينئذٍ عن أفضل ثيابه وأخذ يسابق شمس الصباح التي أسفرت عن واقع متجدد بالأرزاق. كان مكدود يحب التأسي بالطيور التي تهجر أعشاشها حينئذٍ وتقضي يومها بحثًا عن لقمة العيش، ليوافيها الغروب وقد عادت بما فتحه الله عليها من الرزق. والطيور تطلب الأسباب مع الاعتماد على مسببها. ومكدود يعتقد في قرارة قلبه أن الأسباب التي سخره الله لها لا تناسب همته الكبيرة وعقله الوافر. لم تخل أوقات عمله من التفكير في الانخلاع من ربقة وظيفة المندوب التي لا يعتبر أربابها تخصصه الجامعي ولا يأبهون بمواهبه الواعدة.

وسبيل مكدود لمدافعة هذه الخواطر العابرة هو تذكير نفسه بأن العمل في جميع صوره الشريفة والوضيعة لهو خير من بطالة الذهن والجسد، فـ"رأس الكسلان بيت الشيطان" كما يقال في الحكمة الشائعة.

لم تنقض نصف ساعة من الزمان حتى استخرج مكدود قميصًا أخضر من كومة ملابسه التي ملأتها تجاعيد الغسيل والتي لم يكترث قط بإزالتها قبل أن يحين موعد العمل.

امتطى سيارته أملاً في أن يتصدر المتسابقين إلى المستودع حيث توزّع البضائع. وخصومه في السباق هم زملاء المهنة الذين يتنافسون في جني أحسن البضائع التي يقدر لها أن تنفق بين العملاء .

ابتعد قليلاً عن بيته، وسلك سبيل العمل، فتداعت إلى ذاكرته صور ازدحام الزملاء عند باب المستودع، ثم تهالكهم على نافذة صغيرة يتلقون منها نصيبهم. ولا يقض المضجع أو ينكد اليوم إلا خيالات تعيسة كهذه.

فكيف إذا اقترنت -في ذهن مكدود- بضعف المحصول، وقلة العائد، وطول الجَهْد، وشيءٍ من "درك الشقاء"؟!

وما أكثر ما يخرج الناس من ذلك كله بخفيّ حنين. بل إن "حنينًا" نفسه لم يجرب خذلانًا كهذا الخذلان!

عبث مكدود بمذياع السيارة وجال بين قنوات الإذاعة عسى أن يقع على ما يلهيه عن الفأل السيئ. وشأنه أن ينصت إلى آيات الذكر الحكيم، لتطمأن روحه إلى أحسن الحديث. فإذا انقضت تلاها بلهو الحديث وألحان الموسيقى، لترتقي روحه في أوهام وأحلام تنسيه آلام الماضي، وتغفله عن هموم المستقبل. يتقلب مكدودٌ -إذن- بين لهو الحديث وأحسن الحديث. ويأتي الصمت بوطأته الشديدة ليشوش ذهنه، ويقلّب مزاجه بين الفأل والشؤم، وبين الدعة والثورة، وبين التروي والتهور.

وقد بلغ مكدود غايته أخيرًا. فأخذ يمني نفسه باقتناص البضائع الواعدة والخلاص من أوزار الوظيفة قبل أن يباغته الليل. فـ"الليل أخفى للويل". وإرجاء الحصاد أو تأخره حتى العشاء يؤذن بعواقب لا يحمدها عاقل. ففي الليل تنسلّ جحافل السرّاق وذوي الجنايات لتستوقف المساكين وتسطو على بضائعهم وأموالهم وتفقرهم بعد أن كانوا يطلبون العز والغنى.

انقطعت خواطر مكدود لما أبصر صديقه شداد متأخرًا على غير عادته عن موعد اقتناص البضائع، فأشفق عليه لهزال محصوله الذي سيجنيه في آخر اليوم. ولم يرد ولو للحظة أن يسأله عن علة إبطائه، فالناس هنا سواسية في البؤس.

وإذ به يخرج من المستودع. تسير نفسه في الهواء زهوًا واختيالًا بكثرة ما يحمله من البضائع. بدت في أساريره حماسة لا تخفى. أخذ ينظر في قائمة العملاء، ويصنفهم بأعداد طلباتهم. فكثرة البضائع تعني كثرة

الآخذين، وكثرة الآخذين تقتضي كثرة العمولة التي ينالها من الشركة في آخر الشهر. وربما انتصف الشهر الآتي ولمّا ينلها بعد!

امتلأت السيارة أكوامًا من الصناديق والأكياس المغلفة، وسارت تميل مثقلة في الطريق. فصرف مكدود عنها بصره وذهنه ليتصل بعملائه عميلًا عميلًا.

ساعة بعد الظهر.

بضاعة واثنتان، خمس وتتلوها عشر. تناقصت البضائع حتى انتصف عمل مكدود. وبلغ مكدود نهاية الكدّ والتعب. وبلغت الشمس غاية قيظها وسمومها. ولم تكن الراحة -والحال كذلك- سوى في الهروب إلى مسجدٍ يستريح مكدود فيه من العناء والنصب.

لكن استكمال أسباب الراحة لا يتم قبل أن تزول المنغصات. وأعظم المنغصات الخوف ممن يتسلل في ضوء النهار ويختلس البضائع والأموال

المختزنة في سيارات مكدود ورفاقه. وقد تناهت إليه شائعة وهي أن مكروبًا زميله في المهنة قد سُرِق على حين غرةٍ منه. ولم يكن بدٍ سوى أن يقتطع من مرتبه الشهري بقدر تفريطه وغفلته. وقد اعتبر مكدود بهذه الفاجعة. فكان يحذر أشد الحذر من إهمال سيارته، ومن إبعادها عن ناظريه.

سار مكدود بخطوات متثاقلة إلى المسجد، واختلس نظرات يراقب سيارته من بعيد. ولم يزل خوفه حتى دخل المسجد، وأحس برائحته الزكية تتسلل إلى أنفه فنسي كدورات ازدحام الصباح. واستنشق هواءً باردًا رقيقًا بعثت به مكيفات المسجد، فما كاد يزفره ويخرجه من صدره. وعندئذٍ قال مكدود: الحمد لله. خرجت تلك الكلمة الطيبة من أعماق قلبه، فانعتق من أوهام ما مضى وما سيأتي.

تساقط ببطء على فرش المسجد واستلقى عليها بظهره. فرأى اتساع سقف المسجد وضخامة الثريا التي تتوسطه. هابه المنظر، فأخذ يتأمله مليًا، وشرد بذهنه بعيدًا حتى اعتراه طيف من الوسن الذي عكّر تأملاته الساذجة.

لم تمض بضع ثوانٍ حتى استسلم مكدود بكليته للسهاد، وطار في أحلامه. فغاب بروحه وجسده عن سيارته، وعملائه، وبضائعهم، ورفاقه، وشركته، وعمله، وبيته، ومستقبله البعيد. وغاب كذلك لأزيز هاتفه الذي طفح بالمكالمات والرسائل. فقد ارتاح مكدود إلى الأبد!

تمت القصة

albara1500@hotmail.com

الجمعة 6/صفر/1444هـ

2/سبتمبر/2022م